المبحث الأول

إشكالية الحقيقة والمجاز فى الفن الكنائى

فى الفكر البلاغي القديم والحديث

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل :

لا شك أن البلاغيين قدماء ومحدثين عنوا بالفن الكنائي ولم يخفوا إعجابهم به، بوصفه اللمحة الدالة ، وهو الإلماح حين لا يجوز الإفصاح، إذ عد هؤلاء أن "الكناية " فن من فنون القول، دقيق المسلك نظيف المأخذ، والبلاغيون وكل المعنيين بدراسة هذا الأسلوب الفني في مختلف التصانيف، لم يألوا جهداً في بيان حدوده وأقسامه وماهيته وعلاقته بالأساليب البلاغية الأخرى، فرصدوا تداخلاً بين المفاهيم، كما رصدوا اجتهاد النقاد والشُّراح حِيال هذا الفن، ما تفرَّد به أحدهم دون سواه، وما أخذه السابق عن اللاحق، وما تميز به أحدهم عمن سواه حِساً وتذوقاً.

وحتى لا يكون البحث دائراً في فلكٍ يستهلك ما استهْلك سابقا، أو يكرر ما سبقه من أبحاث حول "فن" تناولته كثير

من المباحث، إما مفردة، وإمَّا فى بنية مباحث أخرى بلاغية، كان على الباحث أن يضع الخطوط التالية منهجاً يسير عليه فى تناوله ومعالجته لإشكالية (الحقيقة والمجاز) فى فن الكناية قديما وحديثا على النحو التالي .

أولاً:

اهتم البحث بإشكاليةٍ تمثل حجر الزاوية فى التعبير الكنائى، وهى إشكالية (الحقيقة والمجاز)، وقد تطرق البحث لهذه الإشكالية فى الفكر البلاغي القديم والحديث دون أن يتطرق لتفصيلاتٍ لأقسام "الكناية" عند البلاغيين والشواهد التى أتوا بها، بل إن البحث يهتم ويسلط الضوء على أقوالهم ، ومدى اختلافهم فى طرحهم لهذه الإشكالية.

ثانياً:

تجنب البحث طرحَ الاختلاف فى مفهوم " الكناية "، ومدى تداخله بمفاهيم أخرى مثل "الإرداف" و"التورية"، وغير ذلك، مما تحدث

فيه البلاغيون القدماء، وأفاضوا فيها الحديث، وكذا المحدثون شارحين وموضحين [1].

١- طالع الصفحات التالية لتقف على هذه المؤلفات قديما وحديثا، فهي تتناول بالتفصيل هذه المسائل عرضاً وافياً .

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً : إشكالية الحقيقة والمجاز
فى الفن الكنائى فى الفكر البلاغي القديم .

ذكرنا من قبل أن البلاغيين القدماء اهتموا بالفن الكنائى اهتماماً بالغاً، ولا يخفى على دارس البلاغة العربية أن فنونها لم تستقر على ما هو عليه من هذا التصنيف والتبويب إلا بعد مرحلة طويلة سبقتها، اختلفت فيها المفاهيم البلاغية وتداخلت، وبعدت عن فلسفة التفسير والتعليل التى صاحبت مرحلة تطور الفكر العربي واتصاله بغيره من الثقافات التى تعاملت معه إبَّان اتساع رقعة الدولة الإسلامية من ناحية، واجتهاد النقاد والبلاغيين والشراح والمفسرين فى بيان الأداء القرآني المعجز من ناحية أخرى، لذا فقد رأينا أن تصنف البلاغيين القدماء صنفين ، صنف تعرض للكناية من خلال الشواهد والشرح دون أن يلتفت نحو هذه الإشكالية وهذا الصنف يمثل مرحلة البداية، والآخر : تعرض للكناية بصورة

أكثر تقسيما وأكثر شرحاً وتمثلت إشكالية(الحقيقة / المجاز) بصورة واضحة فى تناوله .

لويفن الكنائى ـه

نطالع منها الخليل بن أحمد فى كتابه"العين"[١] سيبويه فى "كتابه" [٢]الفرَّاء فى" معاني القرآن"[٣] وآراؤهما مكملة جهود الخليل، ومبيِّنَة بلاغة الإخفاء والستر على الإفصاح، ومن هذا الرعيل " الجاحظ " الأديب العالم، وهو فى مؤلفيه" البيان والتبيين" [٤] و"الحيوان" [٥]لم نجد سوى تحليله لبعض الشواهد التي تثبت أنها- أي الكناية- تقابل التصريح والإفصاح[٦]، ويأتي"ابن قتيبة "ولا يتعدى

١- الخليل بن أحمد الفراهيدى ، كتاب العين،تح/ مهدي المخذومي، وإبراهيم السامرائي،(سلسلة المعاجم والفهارس) وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٢م .
٢- سيبويه، كتاب سيبويه، تح / عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت، لبنان ١٩٩١م
٣- الفراء، معاني القرآن ، محمد على النجار، وأحمد يوسف النجاتي، عالم الكتب ط٣، ١٩٨٣ م
٤- تح/ عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي،مصر،ط ١٩٧٥،٤م، وطبعة:السيد محمد فاتح الداية، لبنان،(مكتبة الجاحظ) (د/ت)
٥- تح/ عبد السلام هارون،دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م .
٦- البيان والتبيين(مرجع سابق)، ٨٨/١، ٧/٢

حديثه عن "الكناية" فى كتابه: " تأويل مشكل القرآن" [1]عن أنواعها ومقاماتها ، وهى مُنْصبَّة على كنايات القرآن، ومن تحليله لبعض الشواهد فى كتابه" تأويل مختلف الحديث" [2] لم نجد فيه إشارة إلى "اللازم" أو"الصلة" بين الكناية والمكنى عنه، وإن كان مستوعباً للتعبير الكنائى [3]ويدلى " المبرد" بدلوه فى درس "الكناية" فى كتابه "الكامل"[4] في باب " ضروب والكلام " قائلاً: " والكلام يجري على ضروب، فمنه ما يكون فى الأصل لنفسه، ومنه ما يُكَنَّى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلاً فيكون أبلغ فى الوصف" [5]ويعلق د. بدوي طبانة بأن "المبرد" يفرق بين نوعين من التعبير؛ أحدهما استعمال الألفاظ فيما وضعت له على سبيل "الحقيقة"، والثاني "الكناية"

١- شرحه، ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، مصر، ط١٩٧٣،٢م
٢- صححه وطبعه،محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت ، لبنان،١٩٩١ م ص:١٦٣ ، ١٦٤
٣- بشير كحيل، الكناية فى البلاغة العربية(مرجع سابق) ص: ٣٥
٤- علق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاته ، نهضة مصر بالفجالة مصر، ١٩٥٦ م
٥- الكامل، (مرجع سابق)، ٢ / ٢٩٠

والثالث ما يكون "استعارة أو تمثيلا" [1]ويبدوا -إذن- من كلام" المبرد" وتعليق بدوي طبانة بأن "المبرد" كان يرى "الكناية" خارج دائرة "المجاز" بدليل إثباتها فى قسم بعيداً عن الاستعارة.

وتتوالى جهود البلاغيين، ينتهي القرن الثالث، والمصطلح ما يزال غائماً غير محدد الدلالة" [2]ويأتي" قدامة بن جعفر" ويدخل " الكناية " تحت " الإرداف "[3] وهو نفس تعريف الكناية عند غيره ممن أتو بعده، حتى إن الشواهد هي نفسها [4] وإن لم ينص عليها صراحة ويعرض أبو هلال العسكري "للكناية" في كتابه" الصناعتين[5]تحت ما أسماه " فى الكناية والتعريض " [6]أو" المماثلة" [7]أو" فى الإرداف

١- بدوي طبانة، البيان العربي (دراسة تاريخية فنية فى أصول البلاغة العربية) الأنجلو المصرية، مصر ط٢، ١٩٦٧ ، ص:٢٢٦

٢- إبراهيم عبد الحميد السيد ، مصطلحات بيانية، دراسة بلاغية تاريخية، ط١ مطبعة الحسين الإسلامية، مصر ١٩٩٧ م ، ص:١٤٥ .

٣- نقد الشعر تحقيق : كمال مصفى ، الخانجي ، القاهرة ط٣ ، ١٩٧٨ م ص: ١٥٥ .

٤- نفسه، ص: ١٥٦ .

٥- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر) تح / على محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ط٢ ، ص١٩٧ م .

٦- نفسه، ص:٣٨١

٧- نفسه، ص: ٣٦٤

والتوابع"[1] وتناوُلُهُ- أيضا- يشوبه الاختلاط وعدم الوضوح [2]و"ابن فارس" فى كتابه " الصاحبي فى فقه اللغة، سنن العرب فى كلامها"، لا يفترق عن سابقيه -أيضا-فالكناية هي "الضمير"[3]أو بمعنى "الكنية "وهى تختلط عنده بمصطلحات مثل"الإيماء"[4]

ع

الطائفة الثانية :

فى هذه الطائفة من البلاغيين تبدأ إشكالية العلاقة بين" الحقيقة والمجاز" فى الظهور، ويبدأ التداخل بين الكناية وبين فنون مجازية أخرى، وتظهر قضية إخراج "الكناية" من "المجاز" أو إدخالها باعتبارها نوعاً من أنواعه، أو هي فى منطقة بين الحقيقة والمجاز، وأول من يطالعنا "أبو منصور الثعالبي" فى كتابة" الكناية والتعريض"، وقد

١- نفسه، ص: ٣٦٠

٢- يوسف أبو العدوس، المجاز المرسل والكناية والأبعاد المعرفية والجمالية الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٩٨م، ص: ١٥١

٣- تح / مصطفى الشويمى، مؤسسة بدران،بيروت، لبنان، ١٩٦٣م، ص:٢٦١

٤- نفسه، ص: ٢٤٨

أشار إلى أنه لم يُسْبق إلى تأليفه، كما يذكر هو [١] ومع ذلك لا يكاد "يضع فرقا واضحاً بين التعريض وبين الكناية " [٢] ويلحظ ذلك أيضاً محقق الكتاب قائلاً "ولم ينص الثعالبي على الفرق بين الكناية والتعريض فى قاعدة نظرية محددة، إلا أنه أفرد أمثلة خاصة لكل منها " [٣] والكتاب زاخر بأنواع كثيرة للكناية ممثلة فى القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف والشعر والأمثال، والثعالبي فى كتابه الآخر "روضة البلاغة "[٤] يُدخِل "الكناية" مع الاستعارة والتمثيل، قائلاً "ومما يتصل بالاستعارة أيضاً التمثيل والكناية لاشْتِراكِ الثلاثة فى كونها مجازاً "[٥] ويقول فى موضع آخر تالٍ وأما "الكناية" فهي التعبير عن المعنى ببعض لوازمه " [٦]، ويأتي بعده أبو على الحسن بن رشيق القيرواني فى كتابه "العمدة فى

١- تح/عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٨٨م ص: ٤

٢- بشير كحيل، الكناية في البلاغة العربية، (مرجع سابق)، ص: ٧٠

٣- الكناية والتعريض ، مقدمة التحقيق ، ص: ٦٩

٤- تح/ محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر، ١٩٩٤م

٥- نفسه، ص: ٤٤

٦- نفسه، نفس الصفحة

محاسن الشعرَ، وآدابه ونقده "[1] ليتحدث عن الإشارة، ويدرج تحتها التفخيم والإيماء والتعريض والتلويح والتمثيل والرمز واللمحة واللغز واللحن، وهو المحاجاة والتعمية والحذف والتورية والتتبع، وقوم يسمونه التجاوز[2] و" ابن رشيق" بهذا الطرح يبين أن مفهوم " الكناية " ما زال مختلطا بغيره، غير واضح الحدود، فهو يجعلها مرادفة للتمثيل[3] ويجعلها مرادفة للإشارة، والتورية أيضاً كناية، أو إنها " التتبيع "[4] وابن رشيق بهذا الطرح يجعل الكناية ضمن بابي "المجاز والإشارة"، ويبدو أن الإشارة مع ما تضمَّنَتَهُ من أنواع هي الأخرى ضرب من "المجاز"، إذ ثمة قرائن يمكن أن تستدل بها على ذلك، منها أن "التتبيع" يسميه قوم " التجاوز" بمعنى المجاز، وأن التعريض أو الكناية أو الرمز أو الإيماء أنواع

١- حققه : محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ط ٥ ١٩٨١ م

٢- نفسه، ١/ ٣٠٢ وما بعدها

٣- بدوي طبانة : البيان العربي،(مرجع سابق) ص:٢٢٩

٤- العمدة(مرجع سابق) ١/٣١٤

مجازية كنائية أيضاً [1]، والدليل على أن ابن رشيق يدخل" الكناية" فى باب المجاز، ما التفت إليه تمام حسان فى تفريقه بين الكناية والتورية، مستدركاً على "ابن رشيق" خلطه بين المصطلحين يقول " وثالثها لزوم القرينة فى التورية بعكس الكناية، قال الشاعر:

أيُّهَا المُعْرِضُ عنَّا حَسْبُكَ الله تَعَالى

"المُعْرِض" قرينة على أن " تعالى" تعنى الأمر بالاقتراب"[2] وبذلك-وإن جعل ابن رشيق "الكناية" من أبواب المجاز- لم يناقش هذا الرأي صراحة أو يَعْرِض لمسألة القرينة وعلاقتها بموقع الكناية من المجاز.

١- بشير كحيل، الكناية فى البلاغة العربية،(مرجع سابق) ، ص:٧٦

٢- الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، نشر مشترك بين الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مصر، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد ١٩٩٨ م، ص: ٣٧٨

وعبد القاهر الجرجاني في" أسرار البلاغة " [1]نجده يفرِّع الكناية إلى فروع ذكرها فى تعليقه على أبيات منها :

ولمَّا قَضَيْنا مِن مِنًى كُـلَّ حَاجَـةٍ

ومَسَّحَ بالأَرْكانِ مَنْ هُوَ مَاسِـحُ

يقول " ثم دل بلفظة (الأطراف) على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء...، والمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع فى اللغة، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه و ردفه فى الوجود فيومئ إليه ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد" يريد طويل القامة، و"بكثير رماد القدر" يعنون كثير القرى، وفي المرأة"

١- قرأه وعلق عليه ، أبو فهد : محمود محمد شاكر ، نشر مطبعة المدني، القاهرة ط١، ١٩٩١ م

نؤوم الضحى" والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها[1]، إن تعريف عبد القاهر السابق يقرر التالي :

- تجاهل اللفظ الموضوع، والعدول عنه، وما يوجبه من معنى حقيقي ظاهر للوصول إلى المعنى التالي (المراد) .
- أن اللفظ الموضوع فى اللغة دليل على المعنى المراد ، المعنى الآخر، المَعْنَى بالبحثُ عنه، وهنا يجعل عبد القاهر من التعبير نفسه قرينة على إيراد المعنى اللازم (المعنى الآخر)، دون النظر إلي المعنى الأصلي، وقوله "دليل على المعنى المراد" مسوغ لعدم إرادة المعنى الحرفي، وهذا حد المجاز الذى قال به عبد القاهر" فإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصفه بأنه "مجاز"، على معنى أنهم أجازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أولاً [2]، ويقول " قد أجمع

١- دلائل الإعجاز فى علم المعاني ، صححه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان، ١٩٧٨ م ص: ٥٢

٢- أسرار البلاغة، مرجع سابق) ، ص: ٣٩٥

الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح... فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت : هو طويل النِّجَاد، وهو جَمُّ الرماد، كان أبهى لمعناك وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد " [1] وهو بهذا يرجحها على الحقيقة [2] ثم تأمل قوله مرة أخرى قائلاً بمجازية الكناية " والكناية من هذا الضرب الذى لا تصل منه بدلالة اللفظ وحدة ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ... أوَلا ترى أنك إذا قلت هو"كثير رماد القدر"، أو قلت : "طويل النجاد"، أو قلت فى المرأة:" نؤوم الضحى"، فإنك فى جميع ذلك لا تفيد غرضك الذى تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذى يوجبه ظاهرة، ثم يعقل

١- دلائل الإعجاز ، ص: ٥٥ ، ٥٦

٢- بشير كحيل، الكناية فى البلاغة العربية، (مرجع سابق)، ص: ٨٧

السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا، هو غرضك، كمعرفتك من كثير الرماد أنه مضياف...[1].

إذن فعبد القاهر يرى فى المعنى الأول أو الظاهر فى التعبير الكنائى مجرد المعرفة الأولى التى لا يجب الوقوف عليها ولا يجب اعتمادها، فهي معرفة ساذجة، وفى ذلك مالا يفيد غرضك الذى تعنى من مجرد اللفظ " ليصبح المعنى المختبئ هو القصد ومدار الأمر" ثم يعقل السامع ذلك المعنى " وإتيان عبد القاهر بـ " ثم " يؤكد ضرورة التمهل في الانتقال من الدلالة الظاهرية في التركيب الكنائي إلى الدلالة المرجوة الأخرى، وإلا اتسم السامع بعدم التعقل وفساد الرؤية، وفساد الاستنتاج.

مرة أخرى يرى عبد القاهر -حين جمع بين الكناية والاستعارة والتمثيل- مجازية الفن الكنائى، وهو أمر واضح من كلامه، فلم ير جوازاً للمعنى الحقيقي كما رآه بعض البلاغيين التاليين بعده، بل إن

١- دلائل الإعجاز، (مرجع سابق)، ص: ٢٠٢

عدم التفاته إلى المعنى الأول، عدَّه بعض الباحثين مما يؤخذ على عبد القاهر، قائلا " ومن المؤسف أن عبد القاهر يكاد لا يضيف شيئاً إلى ما قاله عن خصائص المعنى اللغوي الأول باعتباره معنى لغويا ظاهرا بخلاف المعنى الثاني، وهو المعنى الرمزي الباطن" [1]، وهو بهذا التناول الخصب"القائم على تذوق النصوص والاحتكام إلى الذوق الأدبي، قد أعطى مبحث الكناية عمقاً وخصوبة ودقة لم نجدها عند غيره"[2]

ويأتي الزمخشري فى كتابه الكبير " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل [3]ليدخل "الكناية" فى باب "المجاز" بل هي أخته، ويقول معقباً على قوله تعالى:

١- محمد مفتاح،مجهول البيان (سلسلة المعرفة الجامعية) دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٠م،ص: ٩٨

٢- إبراهيم عبد الحميد السيد التلب، مصطلحات بيانية دراسة بلاغية تاريخية ط١، مطبعة الحسين الإسلامية ، مصر ١٩٩٧ م، ص: ١٥٨

٣- طبعه وصححه، مصطفى حسين أحمد ، نشر دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي ، بيروت ، البيان ط٣ ، ١٩٨٧ م

﴿ ... أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]

"شر مكانا "جَعَلت الشرارة للمكان، وهى لأهله، وفيه مبالغة ليست فى قولك : أولئك شر وأضل لدخوله فى باب الكناية التى هي أخت المجاز"[2] وفى ذلك إشارة واضحة لمبالغة الدلالة المستكنة في التعبير الكنائي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إشارة -أيضا- إلى أن الكناية أخت المجاز.

وفى تفريقه بين الكناية والتعريض لم نره يشير إلى جواز إرادة المعنى الأصلي " فإن قلت : أيُّ فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل، لطويل القامة، وكثير الرماد للمضياف.."[3] و يشير إلى هذا محمد أبو موسى قائلا" لا نجد فرقا بين طريقة

١- سورة المائدة : من الآية ٦٠.
٢- الزمخشري، الكشاف، ٦٥٣/١
٣- نفسه، ١ / ٢٠٢

الكنايـة وطريقـة المجـاز في اسـتعمال اللفـظ في غـير مـا وضـع لـه"[1] ويزيـد د. محمـد أبـو موسـى قـائلا" وهـو في هـذا يريـد أن يلـهم السـامع المعـاني المجازيـة أو الكنائيـة بسـرعة دون توقـف عنـد ظـاهر المعنـى[2] ويستدرك بعـض البـاحثين المعاصرين عـدم الدقـة فـى تعريفـه للكنايـة لدخولـه إياهـا فـى بـاب المجـاز، وذلـك لأنـة "لم يبـيِّن لنـا :هـل يجـوز إرادة المعنـى الأصلي فـى أسـلوب الكنايـة؟، إن التعريـف علـى إطلاقـه يشـمل المجـاز، ففيـه ذكـر الشـيء بغـير لفظـه الموضـوع لـه، ولكـن قرينـة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي" [3].

والزمخشـرى لا يـزال يعلـق علـى بعـض الآيـات مؤكـداً مجازيـة الكنايـة بعدم جـواز المعنـى الحقيقـي فـى الآيـة، فيقـول معقبـاً علـى قولـه تعـالى:

١- البلاغـة القرآنيـة فـي تفسـير الزمخشـري، وأثرهـا فـي الدراسـات البلاغيـة، مكتبـة وهبة ، ط٢، ١٩٨٨م، ص: ٥٤٨

٢- نفسه، ص: ٥٥٥

٣- إبراهيم عبد الحميد السيد، مصطلحات بيانية، (مرجع سابق) ص: ١٦٩ ، ١٧٠

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ...﴾ (١)

يقول " وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر، لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كما كنى عن ذلك بِعَضِّ الكف، والسقوط فى اليد "(٢) ويؤكد مجازية الكناية فى تعليقه أيضا على قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٣)

يقول " عض اليدين والأنامل والسقوط فى اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به فى طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده فى نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجده عند لفظ المكنى عنه "(٤) ، ويشيد بشير

١- سورة الكهف : الآية ٤٢
٢- الكشاف، ص: ٧٢٤
٣- سورة الفرقان : من الآية ٢٧
٤- الكشاف، ص: ٢٧٦

كحيل بهذه الملاحظة قائلاً " يرجع الباحثون الفضل للزمخشري فى سبقه لاستعمال مصطلح المجاز عن الكناية استعمالاً لا عهد للبيان العربي به [1] ويقر بذلك د. إبراهيم عبد الحميد السيد حين يقول "فهو أول من ذكر مصطلح المجاز عن الكناية، وذلك فى تفسيره للآيات التى يمتنع فيها إرادة المعنى الحقيقي، وهى التى تتعلق بتنزيه الله عزوجل عن مماثلة الحوادث، مثل غل اليد وبسطها، والاستواء على العرش وعدم النظر، و نحو ذلك " [2].

و الزمخشري حيال علاقة الكناية بالمجاز كان واضحا بالقول بمجازيتها، وعدم النظر إلى المعنى الحقيقي، وذلك حين يتصل الأمر بآيات الصفات الإلهية، أو ما من شأنه تنزيهه سبحانه، وهذا واضح فى تعليقه على قوله تعالى:

١- الكناية فى البلاغة الغربية ، مرجع سابق، ص: ١١٢
٢- مصطلحات بيانية، (مرجع سابق) ، ص:١٧٠

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ....﴾ (١)

ثم يعرض الفكرة مرة أخرى، فكرة مجازية الكناية وعدم جواز المعنى الحقيقي، حين يعلق على قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ... ﴾ (٢)

بقوله "مجاز عن الاستهانة والسخط عليهم ، تقول فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه .. فإن قلت : أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه ؟ قلت أصله فيمن يجوز عليه النظر (الكناية)، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه، وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثَمَّ نظر، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع، كناية فيمن يجوز عليه

١- سورة المائدة : من الآية ٦٤
٢- سورة آل عمران: من الآية ٧٧

النظر"[1] ، ويقوم صاحب " مصطلحات بيانية معلقاً ومقنناً علاقة المجاز بالكناية، ومحافظاً على هذا القانون الثابت، فالفرق بين المجاز والكناية هو "فى إمكان المعنى الأصلي أو استحالته ، فإذا كان المعنى الأصلي ممكناً كان اللفظ كناية، وإذا كان مستحيلاً كان اللفظ مجازاً متفرعاً عن تلك الكناية لأن استحالته قرينة مانعة[2]، والسبب فى هذا الاضطراب والتحايل حسب رأي صاحب كتاب" مصطلحات بيانية" السابق :

١- النظر إلى بعض التعابير الكنائية خارج نطاق السياق العام.

٢- تعد استحالة اللفظ أو المعنى الحقيقي قرينة مانعة فى إيراد المعنى الحقيقي.

وننتهي إلى كتاب " نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز" للرازى لنجد فيه هذا التعريف الصارم لمفهوم الكناية، هذا المفهوم الذى تلقفه من بعده البلاغيون قدماء ومحدثون، ممن أتو بعده، ومفرقاً

١- الكشاف، ص:٣٧٦

٢- إبراهيم عبد الحميد السيد، مصطلحات بيانية، (مرجع سابق) ص:١٧٠

بينهـا وبـين المجـاز، بقولـه " اعلـم أن اللفظـة إذا أطلقـت وكـان الغرض الأصلي غير معناها، فلا يخلو إما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالاً على ذلك الغرض الأصلي، وإما أن لا يكون كذلك فالأول هو الكناية، والثاني هو المجاز " [1] وكان تناوله بهذا المفهوم قد أفقدها ثراءً فنياً، انشغل عنه بالجدل والمنطق، فقد " أقحم طريقة المناطقة فى الاستدلال على أمور مردها الذوق، والقدرة على الإحساس بالجمال فى التعبير"[2]، وكل ذلك بسبب عناء البحث عن القرينة ، ولذلك فهي حسب رأي الرازي" ليست من المجازوإنما هي حقيقة "[3] والرازي مرة أخرى يحاول التفرقة بين (المجاز والكناية) مشيراً إلى الحيرة والقلق حيال هذه القضية، التى لم يجد من ورائها سوى البعد عن حصاد الجمال فى التعبير الكنائى، يقول "الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانياً، هو

١- ، تح/ أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي، القاهرة، مصر، ط ١، ١٩٨٩م، ص: ١٩٠

٢- إبراهيم عبد الحميد السيد، مصطلحات بيانية، (مرجع سابق)، ص: ١٧٨

٣- نفسه، ص: ١٧٥

المقصود، وإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معتبرا، وإذا كان معتبرا فما نقلت اللفظة عن موضوعها فلا يكون مجازاً "[1] وكان تناوله للكناية بهذا المفهوم مدعاة للبلاغيين من بعده لفلسفة العلاقة بين المجازوالكناية، حتى إن بعضهم يرى الكناية من المجاز، وآخرون يخرجونها منه ويجعلونها مستقلة والبعض الآخر يرونها حلقة وسطى بين الحقيقة والمجاز.

ويأتي السكاكي بتعريف للكناية فى كتابه" مفتاح العلوم"[2] لم نر فيه كلاماً عن جواز المعنى الحقيقي فى التعبير الكنائى يقول " الكناية هي ترك التصريح، بذكر الشيء إلى ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول:فلان طويل النجاد، لينتقل منه إليه ما هو ملزومه، وهو طويل القامة، وكما تقول" فلانة نؤوم الضحى ، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو كونها مخدومة غير محتاجة

١- الرازي، نهاية الإيجاز، (مرجع سابق)
٢- طبعه وكتب هوامشه وعلق عليه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان،، ط٢، ١٩٨٧ م

إلى السعي بنفسها فى إصلاح المهمات "[1] ثم ما يثبت أن يعود إلى مسألة (غياب القرينة) التى تجيز المعنى الحقيقي فى الكناية دون المجاز الذى تعد فيه من أسباب منع إرادة معناه الحقيقي [2] وعلى ذلك فيُفْهم من كلام السكاكي أن " الكناية ليست من المجاز فى شئ وإنما هي من الحقيقة "[3].

ويأتي" ابن الأثير" بعد السكاكي فى كتابه الشهير"المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر[4]ويعرف الكناية بقوله" اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه، كاللمس والجماع، فإن الجماع اسم موضوع حقيقي اللمس كناية عنه، وبينهما الوصف الجامع، إذ الجماع لمس وزيادة فكان دالاً عليه بالوضع المجازى "[5] ويحد ابن الأثير الكناية بقوله

١- نفسه، ص: ٤٠٢
٢- نفسه، ص: ٤٠٣
٣- بشير كحيل، الكناية فى البلاغة العربية(مرجع سابق)، ص: ١٢٣ .
٤- قدمه وحققه وعلق عليه الشيخ كامل محمد محمد عويضة : دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٩٨ م
٥- نفسه، ص: ١٧٠، ١٧١

"فحد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز، والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره" [1]

ويضرب ابن الأثير مثالا يطرح من ورائه جواز إرادة المعنيين في الكناية، فيعلق على قوله تعالى:

﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ .... ﴾ [2]

قائلاً " يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وكل منهما يصح به المعنى ولا يخْتل .. وكل موضع تَرِد فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانبا الحقيقة والمجاز"[3] ، ويقول " والحقيقة أظهر والمجاز أخفى، وهو مستور بالحقيقة، ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ .... ﴾

١- نفسه، ص: ١٧٢/٢

٢- سورة النساء: من الآية ٤٣.

٣- ابن الأثير، المثل السائر،(مرجع سابق) ص: ١٧١/٢

فالفهم يتسارع فيه إلى الحقيقة التى هي ملامسة الجد الجسد، وأما المجاز الذى هو الجماع فإنه يفهم بالنظر والفكر، ويحتاج الذاهب إليه إلى دليل، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ " [1].

وهذا الرأي الأخير لابن الأثير يبين أن المعنى الأول (الحقيقي) ما هو إلا مقدمة لا يجب الوقوف عندها للوصول إلى المعنى (المنتج) بالفهم والفكر، لذا فقد قال بتجاذبها بين الحقيقة والمجاز، وهى حلقة وسطى بينهما:

الحقيقة – الكناية – المجاز.

وهذا لا يعنى أن المعنى الحقيقي جائز الوقوف عليه، فهو بمثابة توطئه إلى المعنى الآخر، صحيح كما يقول ابن الأثير أن الذهن يلمح المعنى الحقيقي، وهو اللمس فى الآية لمس الجسد بالجسد، لكنه ليس هو الغاية التي يُوقف عندها – كما يقول كثير من البلاغيين بجواز إرادة المعنى الحقيقي – ولهذا لا يغالي الباحث

١- نفسه، ٢ /١٧٣

حين يرى بأن "ابن الأثير" يقول بمجازية التعبير الكنائى دون الحقيقة التى تعد أول ما يطرح على الذهن، وليس مُعلَّقاً به مُلْصقاً به إنه سريعاً ما يطرحه إلى المعنى (المجازى) المطلوب.

وعلى نهجٍ مغاير تماماً، يأتي محمد بن على بن محمد الجرجاني صاحب كتاب " الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة [1] ليطرح تصوراً لمسألة القرينة، التى تحل إشكالية التعبير الكنائي يقول " إذا اعتبر أن المجاز ينتقل فيه من الملزوم إلا اللازم، نظراً إلى القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقة فيه فهو صحيح، غير أن الكناية أيضاً كذلك ،لأنه لابد فيها من قرينة وإن لم تكن(لفظية أي معنوية)، ففي قولنا : فلا كثير الرماد، لا يكون المراد هو كثرة الرماد حقيقة ، ولو أُريد لكان مستحيلاً أن يمتدح به الموصوف ولعلها هي القرينة (المعنوية) المانعة من إرادته وقد يكون الانتقال

١- الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة، تح / عبد القادر حسين مكتبة الآداب القاهرة، مصر، ١٩٩٧ م

مـن الملـزوم إلى الـلازم، أو مـن الـلازم إلى الملـزوم أعـم فـى المجـاز مـن غيره من أنواعه، كالكناية مثلاً " [1].

إذن فالجرجـاني (أبـو محمـد) لا يـرى وجـوداً للمعنـى الحقيقـي فالقرنيـة المانعـة فـى التعـبير الكنـائى معنويـة عقليـة، إذ يسـتحيل وروده واعتبـاره، وهـو يكـاد يكـون متوافقـاً مـع ابـن الأثـير فـى النـاتج النهـائي فـى تصـور مفهـوم للكنايـة، حيـث لا يُنْظـر فيـه للمعنـى الوضـعي للتركيـب، بـل يُعـد المعنـى المختبـئ هـو غايـة التعـبير الكنـائى وهو سر جماله وغاية صاحبه .

ولا يفـترق الخطيـب القـزويني [2] عـن غـيره مـن بعـض البلاغـيين فـى نظرتـه إلى إشـكالية المعنـى الحقيقـي وجـوازه فـى تعريفـه للكنايـة، التـى يعرفهـا بقولـه "لفـظ أريـد بـه لازم معنـاه مـع جـواز إرادة معنـاه حينئذ " كقولك ، فلان طويل النجاد " أي طويل القامة "

١- نفسه، ص: ٢١٧، (بتصرف)

٢- الخطيب القزويني : الإيضاح فى علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥ م .

و" فلانة نؤوم الضحى " أي : مرفهة مخدومة ... ولا يمتنع أن يُراد مع ذلك طول النجاد، والنوم فى الضحى، من غير تأويل [١]، ويوضح الفرق بين المجاز والكناية، بقوله " فالفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه ،أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمة ...أن المجاز ملزوم قرينة معانة لإرادة الحقيقة، كما عرفت " [٢].

ويأتي العلوي (يحيى بن حمزة) بكتابه " الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق التنزيل "[٣] وهو يؤكد بلاغة الكناية ومجازيتها بقوله " اعلم أن الكناية من أودية البلاغة، وركن من أركان المجاز " [٤]ويأتي بتعريفه قائلاً " هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين (حقيقة ومجاز) من غير واسطة لا على جهة التصريح " [٥]، وبذلك يرى أن " الكناية يتجاذبها أصلان؛ حقيقة

١- نفسه، ص: ٣٣٠
٢- نفسه، ص: ٣٣٠
٣- راجعه وضبطه ودققه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،ط ١٩٩٥،١م
٤- نفسه، ص: ١٧٢
٥- نفسه، ص: ١٧٦

ومجاز، وتكون دالة عليهما معاً عند الإطلاق "[1] ، ويؤكد وقوعها في المجاز بقوله بأن "الكناية واقفة في المجاز ومعدودة منه " [2] وتعريفه للكناية يعده محمد السيد شيخون " تعريفاً جديداً للكناية يختلف عن تعريفات السابقتين ويميزها تميزاً تاماً عن جميع ما عداها من الصور البلاغية .. إلا أنه أهمل أثر العاطفة في رسم الصورة"[3] وهو يعلق على قول الشاعر المشهور:

و مايَكُ فِيْ مِن عيْبٍ فإنِّي

جَبَانُ الكلبِ مهزُولُ الفُصِيلِ

فكنى عن كرم نفسه وكثرة قراه للضيفان بجبن الكلب، وهزال الفصيل، ولو صرح لقال : إن جنابي مأهول وكلبي مؤدب، لا ينكر الضيف، ولا يهر في وجوههم وإني أنحر النوق فأدع فصالها هزلى[4] ومع عرضه لحقيقة المعنى في البيت الشعرى لكنه لم يقل بجوازه ، في

١- نفسه، ص: ١٧٨

٢- نفسه، ص: ١٨٧

٣- الأسلوب الكنائى نشأته، تطوره ، بلاغته، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، مصر، ط١ ١٩٧٨ م، ص: ٤٥ ، ٤٦

٤- العلوي، الطراز، (مرجع سابق)، ص: ١٩٨

حين أنه قال بكوْن الكناية دالة على الحقيقة والمجاز معاً [1] وجوازه، يعد من السذاجة بمكان، فذبح النوق وترك الفصال هزلى من سوء الفعل وخسارة التربية، وفقدان الرحمة لصغار الإبل، ومع ذلك رأيناه بجعل الكناية حلقة وسطى بين الحقيقة والمجاز.

* * *

١- نفسه، ص: ١٧٨

obeikandl.com

obeikandl.com

ثانياً : إشكالية الحقيقة والمجاز
فى الفن الكنائى فى الدرس البلاغي الحديث

تناول البلاغيون المحدثون هذه الإشكالية ، نعنى إشكالية علاقة الكناية بالحقيقة والمجاز، ولا يخفى عن الباحث فى كتب البلاغة الحديثة أن أكثرها بل معظمها يسير على نهج الرأي القديم القائل بـ (جواز المعنى الحقيقي) فى التعبير الكنائى على غرار كثير من بلاغيينا القدماء، فى حين أنهم جميعاً يتفقون اتفاقاً كاملاً حتى مع القدماء فى أن المعنى الكنائى يتشكل من لفظ له معنى حقيقي يقصد به معنى آخر، هو ملزوم للمعنى الأول، ومازالوا قيد مسألة " القرينة " فى تفريقهم بين الكناية والمجاز، مما جعل الكثير منهم يضعها فى مسافة وسطى بين الحقيقة والمجاز، فى حين أن من البلاغيين المحدثين ما كان أوفق رأيا فى القول

بمجازية التعبير الكنائى، والقول ببحث مسألة القرينة، ووجود مخرج لها..

وأول ما يطالعنا د. عبد الفتاح لاشين فى كتابه"البيان فى ضوء أساليب القرآن" يتحدث فيه عن جهود البلاغيين القدماء في تناولهم لمبحث الكناية، مشيراً إلى اختلافهم حول علاقة الكناية بالمجاز[1] ، وهولا يناقش تعريف البلاغيين القدماء للكناية، بل يقرُّه بقوله " وفى اصطلاح البلاغيين : لفظ أريد به لازم معناه الحقيقي مع جواز إرادته لذلك المعنى الحقيقي، فالصلة بين المعنى الحقيقي والمجازي في الكناية هي صلة التلازم، وهى فى الاستعارة صلة التشابه، وإذا كانت الصلة بين الحقيقة والمجاز فى التعبير الكنائى هي صلة التلازم، أي أن التعبير الكنائى له لازم غير معناه السطحي، فلِمَ يُقِر بجواز المعنى الحقيقي ويوافق عليه دون تعليق؟!، وهو يسير مع القدماء فى أن ليس كل كناية

١- (مرجع سابق)، ص: ٢٦٩

يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي، قائلاً " فقد يمتنع المعنى الحقيقي لخصوص المادة، أو لأنه غير متحقق فى الواقع، كقوله تعالى "الرحمن على العرش استوى " فالاستواء كناية عن الاستيلاء والسيطرة، فالمعنى الحقيقي هنا يمتنع إذا يستحيل أن ينسب إلى الله تعالى الاستواء بمعناه الحقيقي وهو الجلوس ... وهنا لا يمنع من عَدِّ مثل هذه الأساليب من الكناية لأنه لولا خصوص المادة لجازت إرادة معانيها الحقيقية [1]وهو مرة أخرى يقول بأنها واقعة فى المجاز [2]، ومع قوله بجواز إرادة المعنى الحقيقي، إلا أنه لم يشر إليه فى تحليلاته عنها فى النماذج التى أوردها [3].

ويدلى د. فايز الداية فى كتابه " جماليات الأسلوب " الصورة الفنية فى الأدب العربي، مهْتماً بجمالية التعبير الكنائى ، وراصداً

١- نفسه، ص: ٢٧٠
٢- نفسه، ص: ٢٨٢
٣- نفسه، ص: ٢٥٩، وما بعدها

العلاقة بين دلالتيه ، يقول " أن خيوطاً تصل بين الدلالتين، كما هي الحال مع الكناية : إذ ينفى الوصول إلى دلالة عميقة أو بعيدة لكننا نمر عبر دلالة مباشرة، فتتأثر بها، ولا نقفز متجاوزين إياها وهذا ما أراده البلاغيون القدماء – وإن ضاع تعبيرهم فى خضم قواعدهم ومتعرجاتهم – عندما قالوا "الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه [1]

و د. فايز الداية لا يقف عند حدود الدلالة الأولى، بل على القارئ أن يتعدى ذلك، يقول " أما الكناية فهي صورة قائمة على نوع آخر من الحيوية التصورية، فهناك أولاً المعنى أو الدلالة المباشرة الحقيقة، ثم يصل القارئ أو السامع إلى معنى المعنى أي الدلالة المتصلة وهى الأعمق غورا فيما يتصل بسياق التجربة الشعورية والموقف " [2] وهذا السياق الشعوري للتجربة والموقف هي القرنية التى تمنع جوازا المعنى الظاهري للتركيب، يقول

١- طبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط٢ ،١٩٩٠م، ص: ١٥٩، ١٦٠
٢- نفسه، ص: ١٤١

" يظل السياق هو الكفيل بإضاءتها بشكل أساسي[1] ولا يجب الوقوف عند الواقع فهو ليس مطلوباً في عملية التلقي، مما يؤكد بعدم قبول جواز الحقيقة في التعبير الكنائي، يقول " تتجلى القيمة التعبيرية للكناية في ثنائية دلالته، فنحن نتَّجه إلى الغرض والغاية من خلال نص صريح، أي لسنا أمام حاجز هو الواقع، وليس مطلوباً في عملية التلقي إهمال هذا الجانب فهو أساسي في التركيب الدلالي وفي تشكيل الصورة، وإنه يغني الحالة الشعورية لدينا مثلما كانت عند الشاعر أو الكاتب في إحساس جعله يدور هذه الدورة، ويطل من علٍ، أو من أحد الأطراف ليصل إلى الزاوية المؤثرة في كيان التجربة، هنالك الحركة المركبة عندما لا نواجه الدلالة مباشرة، فالتصور يستعد لتلقى ما هو مستكن بعد خطوة أو خطوتين، وبعد ذلك يتداخل في نسيج الكناية ما تشتمل عليه الألفاظ الصريحة، وما وراءها

١- نفسه، ص: ١٥٣

فى الإيحاء " معنى المعنى" [1] إن التعبير الأولى فى نظر المؤلف يمثل متكأً يتكئ عليه للوصول إلى " معنى المعنى " ، وهو ما يتضح في تعليقه على قول الشاعر المعاصر عمر أو ريشة [2] يخاطب صديقه :

أذاكرٌ يومَ روَّادُ الجمالِ بها

لفُّوا جَبينك بالغَار الَّذي ضَفَرُوا

وأنْتَ تَغْتم عَنْهم ما تُكَابِده

تَمُوتُ وهى على أقْدَامِها الشَّجَر

يقول معلقا " فعمر أبو ريشة يتوجه إلى الصمود وتحمل المشاق عند من تأبى نفسه إظهار الضعف، رغم أنه يتسلل إلى جسمه مع نوائب الدهر.. فالعبارة الصريحة " تموت ...الشجر" لا يحتاج إلى معطيات خاصة حتى يخرج القارئ إلى دلالة "الصمود " الكنائية بما فيها من شموخ واستعلاء على الألم والضنى [3] وبذلك لم يُشْق الباحث نفسه بمسألة العلاقة بين

١- نفسه، ص: ١٤٢

٢- دآر العورة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، ص: ٧٤

٣- جماليات الأسلوب، (مرجع سابق)، ص: ١٤٥

الحقيقة والمجاز في التعبير الكنائي، فالتعبير الكنائي مجازي الدلالة لا غير.

و د. سمير أحمد أبو حمدان شغله البعد الإبلاغي الكامن في الكناية [1] ويعترف بأن البلاغيين العرب اختلفوا في إيجاد تعريف نهائي لها [2]، والباحث يعتمد تعريف قدامة بين جعفر لخلوه من هذا الاضطراب بين الحقيقة والمجاز، وإن خلط الكناية بغيرها من المصطلحات، يقول سمير أبو حمدان "ولعل أوفى تعريف للكناية ما أورده قدامة حين حددها : " بأن يريد الشاعر دلالة على معنى هو ردفه وتابع له " [3] يقول مرة أخرى " على أي حال فإن الاتفاق بين البلاغيين العرب كان لجهة أن الكناية " اللسانية " تتشكل من لفظ له معنى حقيقي، يقصد به معنى آخر، وهو ملزوم للمعنى الأول ، دعونا نرسم كلامنا على هذا النحو :

١- الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، باريس ط١، ١٩٩١ م ، ص: ١٥٦

٢- نفسه، ص: ١٥٦

٣- نفسه، ص: ١٥٦

لفظ أصلى

↓

معنى أصلى ——◆ معنى مجازى

ففي (الكناية) ثمة عنصر أساسي، وهو المعنى المتبوع للفظ، فلو قلنا " هذه المرأة طويلة مهوى القرط " فإن هذا اللفظ ينطوى على متبوع له، وهو أنها " طويلة العنق " وعلى هذا الأساس فإن العملية الذهنية لدى ورود اللفظ إلى السمع تجرى على هذا النحو:

بعيدة مهوي القرط

↓

بعيدة مهوى القرط ← طويلة العنق " [1]

وعلى هذا فالتعبير (الأول) مقدمة تصل من خلالها إلى المعنى (الآخر) دون اعتماده والوقوف عنده، فليس للمعنى الحقيقي أي

١- نفسه، ص: ١٥٨

اعتبار، سوى أنَّه توطئه للوصول إلى المعنى (الثاني)، أو كونه سببا في توليد المعني المنتظر، ويدلي د.عبد الفتاح عثمان برأيه فى هذا الإشكال الذى نعني به علاقة الدَّال(الأول الحرفي) فى التعبير الكنائى بالدَّال(الثاني: المراد)، ويوهم بأنه لا يرى جوازاً للدال الحرفي، حين قال" ومعنى الكناية الذى استقر عليه رأى البلاغيين هو أن الأسلوب الكنائى، هو التعبير الذى لا يراد به معناه الأصلي الذى وضعه اللغويون، وإنما يراد به المعنى اللازم لعلاقة بينهما تقوم على النتيجة أو اللزوم " [1]ثم ما يلبث أن يقول " لكن الكناية يجوز فيها إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المكنى عنه " [2]أي أنه يرى (الحقيقة والمجاز) فى الكناية جنباً إلى جنب، ويعلق على قول الشاعر:

١- التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني،مكتبة الشباب بالمنيرة،القاهرة، مصر، ١٩٩٣م، ص: ١٥٠

٢- نفسه، نفس الصفحة

وتُضْحِي فَتِيت المسْكِ فوق فِراشِـها

نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ [1]

بقولـه" يجـوز أن يـراد أنهـا تعطـر فراشـها بالمسـك، وتنـام الضـحى ولا تنتطـق، أي ترتـدى ثيـاب الخدمـة المنزليـة، وهـى المعـاني الأصلية للتعبير، كمـا يـراد المعنـى الكنـائى الـلازم عـن المعنـى الأصلي وهـى أنهـا مترفـه ناعمـة " [2] ى حـين أنـه يتوقـف عـن القـول بجـواز المعاني الأصلية فى قوله تعالى:

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [3]

ويعلـق قـائلاً " فتقليـب الكفـين كنايـة عـن الحسـرة والنـدم والـذي حـدد ذلـك هـو العـرف الاجتمـاعي الـذى ربـط بـين تقليـب الأكُـفِّ والحسـرة والنـدم "[4] بـل إن مرافقـات " تقليـب الكفـين " مـن

١- نفسه، نفس الصفحة

٢- نفسه، نفس الصفحة

٣- سورة الكهف : الآية ٤٢.

٤- عبد الفتاح عثمان، التشبيه والكناية(مرجع سابق)، ص: ١٥١

خواء البستان وخرابه، وقوله " يا ليتنى ... " بدلالته على الندم يجعل من تقليب الكفين دال واضح على الحسرة والندم وسوء الحال . ولست أدرى لماذا توقف المؤلف عن القول بجواز المعنى الحقيقي؟! .

ويعلق د. محمد أبو موسى فى كتابة " التصوير البياني " دراسة تحليلية لمسائل البيان"على علاقة الكناية بالمجاز ومشكلة المعنى الحقيقي فى التعبير الكنائى قائلا " وقد شغلت هذه المسألة أقلام الشراح بقدر لم يكن السياق فى حاجة ماسة إليه،لأن الانتقال فى الدلالات اللغوية لا يلتزم بهذه الدلالات المنطقية "[1]

ويذكر الدكتور محمد أبو موسى تعريف الكناية كما ذكره البلاغيون بأنه "لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادة

١- منشورات جامعة قار يونس ، ليبيا ، ط١، ١٩٧٨ م، ص: ٤٦٥

معناه"[1] ويبدو أنه غير راض عن ذيل هذا التعريف، فنراه يعلق على قول امرئ القيس:

ظَلَّلْتُ رِدائِي فوقَ رأسِي قَاعِداً

أَعُدُّ الحَصَى ما تَنْقَضِي عَبَراتِي [2]

يقول " فالمراد بِعَدِّ الحصى ما رواه من تبديد النفس بسبب ما استغرقها من الكرب والهم، لأن مسألة عد الحصى إذا أفرغناها من الدلالة على هذه الحالة النفسية لا يكون لها قيمة فى سياق الكلام "[3] وهو فى كثير مما عرضه من الآيات القرآنية لا يرى فى المعنى الحقيقي إلا إفراغ مثل هذه الآيات من دلالتها المقصودة المعنية [4]، ومع ذلك يحدث الاضطراب فى استقراء المؤلف حين يعقب على قوله تعالى:

١- نفسه، ص: ٤٦٠

٢- نفسه، ص : ٤٥٨

٣- نفسه، ص : ٤٦٠

٤- نفسه، ص : ٤٦٠ ، ٤٦١

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدٗا ۝٤٩ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ ﴾ [1]

يعلق قائلا " أرأيت كيف عبَّر القرآن عن تلك الحالة، حالة الرفض المشوب بأشياء كثيرة بقوله " فسينغضون إليك رؤوسهم " أي يميلونها تلك الإمالة التى تكون ممن يرفض ما تقول ويستبعده وينطوي فى نفسه على استجهالك وعدم الالتفات إليك"[2] وبعدما يرى ذلك، يستدرك قائلاً " واضح من كل هذا أن العبارة هنا يستقيم معناها المباشر فى النفس والعقل .. " [3] فكيف يستقيم فى النفس والعقل المعنى المباشر وهو (إمالة الرأس)، وهو القائل منذ قليل أن إفراغ العبارة من دلالتها على هذه الحالة النفسية لا يكون لها قيمة فى سياق الكلام، فلا يمكن

١- سورة الإسراء: الآيات ٥٠: ٥١.
٢- نفسه، ص : ٤٦١
٣- نفسه، ص : ٤٦١

قراءة المعنى المباشر فى الآية بدليل قولهم :"من يعيدنا " استهجان وإنكار بالبعث ثم قولهم " متى هو" ، وقولهم من قبل " أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً " والتعجب المشوب بالإنكار، كل ذلك لا يدعو إلى استقامة المعنى المباشر فى النفس ولا فى العقل، لذا فهو يعود ويفرق بين الكناية والمجاز بقوله " ولهذا يقول البلاغيون إن مَناطَ الفرق بين المجاز والكناية من هذا الوجه أي من جهة إرادة المعنى، مع إرادة لازمة، فإن المجاز ينافى ذلك"[1] وهو يرى -مرة أخرى هذا الاضطراب -بأن المجاز ليس لازماً فى صياغة كل صور الكناية " فنقى الثوب : أي لا عيب فيه، وطاهر الجَيْب : أي ليس بغادر، ودنس الثوب: فاجر، فهذه كنايات عن نسبة من غير أن يكون هنا مجاز، فإن قولك نقى الثوب يمكن أن يراد به معناه الحقيقي"[2]وحتى مثل هذه التعابير فقد تعدَّتْ معناها الحقيقي بفعل العرف الاجتماعي وتطور دلالات العبارات

١- نفسه، ص : ٤٦٢

٢- نفسه، ص : ٥٠٠، ٥٠١.

اجتماعيا وزمنيا، ولذا فكيف يمكن أن نضع النقاء بجانب الثوب والطهارة بجانب الجيب ونقول بإمكان المعنى الحقيقي، مع أنه لو جاور الثوب بوصفه جديدا، أو الجيب بكونه خاويا فارغاً لجاز المعنى الحقيقي الظاهري ؟!.

وينتهي د. محمد أبو موسى مرة أخرى فى كتابه "البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف وأثرها فى الدراسات البلاغية"، إلى القول بوجود قرنية مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، حين علَّق على قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ... ﴾[1]

يقول "ولأن المعنى الحقيقي وإن كان ممكنا إلا أن هناك قرنية مانعة من إرادته، وهى كون المخاطب غير مغلول اليد ولا مبسوطها بالمعنى الحقيقي "[2].

١- سورة الإسراء: من الآية ٢٩.
٢- مكتبة وهبة، القاهرة مصر ، ط٢ ، ١٩٨٨ م، ص: ٥٥٦

ويأتي د. تمام حسان [1] ليحل مسألة القرينة في التعبير الكنائي ليقول " بقي أن نشير إلى دلالة عقلية أخرى خاض فيها البيانيون، وهي الدلالة اللزومية، أو دلالة لازم المعنى أو كما يسمونها في النقد الأدبي*Connotion* وتسمى في البلاغة "المعنى البعيد " وإنما جاء البعد من أمرين :

الأول:

أن المعنى البعيد لا يأتي من الدلالة مباشرة، فإذا قلت " فلانة بعيدة مهوى القرط " فإن الدلالة المباشرة للألفاظ " أي المعنى القريب، لا يتعدى "بعد مهوى القرط " أو المعنى البعيد أو لازم المعنى فإنه ارتباط ذهني أو استدعاء تجعل بعد مهوى القرط، يشير أو يستلزم شيئاً أخر هو الرقبة.

١- الأصول (دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، ١٩٨٨ م

الأمر الثاني:

أن البعد قد يأتي عن تدرج اللوازم الكثيرة في الاستدعاء ... وإذا كان محور القرب والبعد لا يقل بالنسبة إلى البيان عن محور (الحقيقة والمجاز) فإن علماء البيان لم يحسنوا عرض مظاهرها ولا تبويبها، وإنما أشاروا إلى بعضها في نطاق علم البيان وتركوا البعض الآخر ليلحقوه بالمحسنات في البديع، فأما في البيان فإن الذي ينتمي إلى محور القرب والبعد هو (الكناية) ويعرفونها بأنها " لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى، ومادام المعنيان واردين على اللفظ، فإن الكناية لا تطلب القرينة بالضرورة، لأن القرينة تعين أحد الأمرين، وذلك غير مراد، ولا مطلوب في الكناية "[1] وبالنسبة لموقفه من المعنى القريب والبعيد، يقول " احتمال قصد المعنى البعيد أقوى، بحيث يصبح المعنى القريب قنطرة للعبور إلى

١- نفسه، ص : ٣٧٨

المعنى البعيد"[1]ويعلل عدم احتياج الكناية للقرينة فى إطار التفرقة بينها وبين التورية، بقوله " فالفرق بين الكناية والتورية يفهم من وجوه، أولهما خاص بالمعنى، وهو فارق الوضوح والخفاء فى المعنى البعيد الذى هو لازم فى الكناية، ومن ثم لم تحتج إلى قرينة ... وثالثهما لزوم القرينة فى التورية بعكس الكناية "[2] .

إذن د.تمام حسان يرى فى التعبير الكنائى بواقعه المباشر" القريب" قرينة لعدم جواز إرادة المعنى القريب لينقل بالضرورة إلى المعنى البعيد، وهو بهذا يقول بمجازية التعبير الكنائى بصورة تختلف عن أنواع المجاز الأخرى.

ويساهم د. محمد جابر فياض فى هذه الإشكالية، يقول" صارت عندهم – يعنى الكناية – لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز

١- نفسه، ص : ٣٧٨
٢- نفسه، ص : ٣٧٨

إرادتــه، وصــار هــذا حَــدًّاً عنــد هــؤلاء البلاغــيين وعنــد المحــدثين منهم والمعاصرين، مع ما فيه من جور عليها وتضييق لمفهومها"[1]

وقــد أوهمنــا بــأن جــواز المعنــى الحقيقــي والوقــوف عنــده غــير منطقي فـى التعـبير الكنـائى، لكـن مـا لبـث أن دار فـى فلـك الآخـرين قـائلاً " أمـا الخـلاف فـى حقيقـة التعـبير الكنـائى أو مجازيتـه، فيبـدو لــي أن مــا ذهــب إليــه الأصــوليون فــى احتمالهــا للحقيقــة والمجــاز خـير ممـا ذهـب إليـه غيرهـم، فكيـف يمكـن أن تكـون الكنايـة حقيقـة وهــى تعــبير غــير مباشــر، وكيــف يمكــن أن تكــون مجــازاً مــع احتمالهــا للحقيقــة، وإمكــان الوقــوف عنــدها، دون تجاوزهــا إلى يفضـي إليـه معنـَى ظـاهِرِ اللفـظ، فـإذا كانـت الكنايـة معنـى المعنـى فـإن لفظهـا محتمـل للمعنـى ومعنـى المعنـى فـى الوقـت ذاتـه، فمَـنْ وقـف علـى المعنـى فهـو فـى إطـار الحقيقـة ومحيطهـا ، ومـن انتهـى إلى

١- الكناية، دار المنارة للنشر والتوزيع ، جدة، السعودية، طـ ١،١٩٨٩ م، ص : ٨٢

معنى المعنى فقد تجاوز الحقيقة والتعبير المباشر "[1] وكيف تسنّى للمؤلف أن يقول بإمكان الوقوف عندها دون تجاوزها إلى يفضي إليه معنى ظاهر اللفظ، فهي إن كانت كما قال، فلا يصح أن يطلق على التعبير إذن أنه كنائي، وليس فيه من جمال التعبير الأدبي شئ ولا للدلالة نصيب، وليس له إلا أن يرصد أثر الجدل حولها قائلا " وهكذا أفضت الدلالة الاصطلاحية إلى ما لم تفضِ إليه الدلالة اللغوية من إقحام لعلم المنطق ومصطلحاته وما قادت إليه هذه المصطلحات من جدل عقيم، أبعد ما يكون عن الفن وطبيعته وما فيه من روعة وجمال..." [2].

والدكتور عبد المطلب زيد يرى عدم الفرق بين الكناية والمجاز، ويقول " نحن نرى أن لا وجه للتفرقة بين المجاز والكناية لأن كليهما يؤدى المعنى أداء غير مباشر، ونرى أيضاً أنه يجب أن يتسع مفهوم المجاز ليشمل الكناية فيصير شاملاً لكل ما

١- نفسه، ص : ٨٤

٢- نفسه، ص : ٧٨ ، ٧٩

يدل على معنى مخالف لما دَلَّ عليه في الأصل، وذلك لعلاقة مع قرينة مانعة أو غير مانعة من إرادة المعنى الأصلي" [1] فبعد أن قال بوجوب أن يتسع مفهوم المجاز ليشمل الكناية، وأن كليهما يؤدى المعنى أداء غير مباشر، رجع ليقول بجواز إرادة المعنى الأصلي فيعلق على قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾

قائلاً " أما في الآية الثانية – مشيراً إلى الآية السابقة – فهي كناية عن البخل، فهنا معنيان أحدهما حقيقي، وهو جعل الأيدي مغلولة حول العنق، وثانيهما كنائي وهو البخل، ويجوز حمل الآية الكريمة على المعنيين معاً، إلا لمانعٍ سواء في العقل أو العادة من إرادة المعنيين "[2] ويقول مرة أخرى أن الكناية " يجوز فيها حمل المعنى على جانبيه الحقيقي الكنائي دون

١- دراسات فى البيان العربي، دار الثقافة العربية، القاهرة ، مصر ، د/ت ، ص : ١٣٦

٢- نفسه، ص : ١٣٧

تعارض"[1] إن إرادة المعنيين جنباً إلى جنب، أو الاقتصار على المعنى الأول الحقيقي، أمر يخالف طبيعة التعبير الكنائى ويخالف طبيعة انحراف التعبير الفني الذى هي خاصية فيه وسببا من أسباب إنتاجه .

ويدلى د. شفيع السيد فى كتابه" التعبير البياني"، برأيه فى هذه الإشكالية، ويرى الكناية صورة من صور التعبير المجازى فيقول "الكناية صورة من صور التعبير المجازى، فيما نرى إذ يصدق عليها مفهوم المجاز فى كونها نمطاً من التعبير يؤدى المعنى أداءً غير مباشر لعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد [2] ويطرح نماذج يؤكد من خلالها حضور المعنى(الملازم) دون أن يتطرق إلى حقيقة المعنى (الظاهر) واعتماده فى التعبير الكنائى، فيعلق على قوله تعالى:

١- نفسه، ص : ١٣٨

٢- التعبير البياني(رؤية بلاغية نقدية) دار الفكر العربي للطباعة والنشر، ط٣ ١٩٨٨م، ص :١٢٠

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[1]

قائلاً " فليس المراد من عضِّ الظالم على يديه، تلك الحركة المادية التى تتمثل فى وضع اليدين بين الأسنان والضغط عليها لأنه لا قيمة لها فى ذاتها،وإنما القيمة الحقيقية فيما ترمز إليه وتدل عليه، ونعنى بها الإحساس بالندم والتحسر على ما فات"[2] ، ويؤكد الرأي السابق – ونعني به المعنى الظاهر وعدم قيمته-ما جاء مجاوراً للآية من وجود" أداة التمني الدالة المستحيل فى تحقيق المراد، فالتمني باتخاذ سبيل أو مؤاخاة مع الرسول يوم الحساب، مستحيل بعد ما خسره فى الأولى، بل إن الدكتور شفيع يؤكد أن جواز المعنى الحقيقي فى كثير من التعابير الكنائية مفسد للدلالة، ومغاير لما ينبغي مراده فقد" يكون التعبير

١- سورة الفرقان : من الآية ٢٧.
٢- نفسه، ص : ١١٤

الصريح المباشر كاشفاً لما ينبغي ستره، أو مجافيا للذوق والخُلُق كقوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا...﴾ (١)

فقد كنى سبحانه وتعالى عن الاتصال الذى تم بين آدم وحواء، وتمَّ حملها كما تحمل النساء، بقوله جلَّ شأنه(تغشاها) وهى عبارة مهذبة لا تمس عفافاً ولا تخرج حياءً"(٢)

ويؤكد رأيه السابق قائلاً " نرى أن إمكان إرادة المعنى الحقيقي أو عدم إمكانه لا ينبغي أن يكون فارقاً بين الأسلوبين يعنى - الكناية والمجاز - مادامت الخاصية الجوهرية لكل منهما واحدة، وهى التعبير باللفظ عن معنى آخر غير معناه الموضوع له لعلاقة بين المعنيين"(٣)

١- سورة الأعراف : من الآية ١٨٩.
٢- نفسه، ص: ١٢٠
٣- نفسه، ص : ١٢١،١٢٢

هكذا يؤكد المؤلف مجازية التعبير الكنائي، ونفي إرادة واعتماد المعنى الحقيقي جنباً إلى جنب مع المعنى المختبئ المراد، وهو يؤكد ذلك مرة أخرى، قائلاً "ثم إن هناك من الكنايات مالا يمكن إرادة المعنى الحقيقي، كتلك التي يسميها المتأخرون كناية عن نسبه، كقولهم : الذكاء بين عينيه ، والحزم في إهابه " فلا يمكن إرادة المعاني الحقيقة لأساليب الكناية السابقة لاستحالة ذلك عقلاً وواقعا، وبهذا تُعد الكناية كما ذكرنا من قبل نوعاً من المجاز" [1]ومع هذا التصور المصيب لطبيعة التعبير الكنائي وإنتاجه لدلالة هي أسُّ وجوده ، نرى الدكتور شفيع يرجع مرة أخرى ليجعل الدال الحقيقي والمجازي متمثلين في التعبير الكنائي، وأن المعنى (الحرفي) يراد ويصحُّ اعتماده، يقول " فإنه من الواضح أن أغلب التعبيرات الكنائية قريبة إلى الحقيقة بحيث يمكن أن تلتبس بها، فيظن القارئ أن المراد بالكلام معناه الظاهر، فالعض على الدين في قوله تعالى:

١- نفسه، ص : ١٢٢

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾

وتقليب الكفين فى قوله تعالى:

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ...﴾

كلاهما يمكن أن يراد به معناه الحرفي الظاهري[1] مع أن ما جاور الآيتين من تعابير تؤكد أن إرادة المعنى (الحرفي) خروج من سياق الدلالة وتلاشيها، في حين أن الدكتور شفيع نفسه قال منذ قليل أن جواز المعنى الحقيقي أو المعنى (الحرفي) الظاهر لا قيمة له فى ذاته، وإنما القيمة الحقيقة فيما ترمز إليه هذه التعابير[2]

وننتهي إلى رأى أستاذنا الدكتور محمد عبد المطلب، الذي يدلى برأيه، معلقا على تعريف السكاكي للكناية الذى يقول فيه " ترك التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى

١- نفسه، ص : ١٢١

٢- نفسه، ص : ١١٤

المتروك"[1] يقول " واستهداف اللازم لا يمنع من إرادة المعنى الأصلي معه، أي أن المعنى الحقيقي والمجازى مطروحان فى السياق وقابلان للقصدية سواء أكانت العلاقة هنا علاقة عرفية أو عقلية " [2] أو أن الكناية " بنية ثنائية الإنتاج .. يتم تجاوز المنتج الأول فى المستوى العميق لحركة الذهن التى تمتلك قدرة الربط بين اللوازم والملزومات، فإذا لم يتحقق هذا التجاوز، فإن المنتج الصياغي يظل فى دائرة الحقيقة" [3]ولا يخفى ما فى تعليق د. محمد عبد المطلب من جواز إرادة المعنى الحقيقي بكونه قابلاً للقصدية، أي يظل التعبير الكنائى فى دائرة الحقيقة، وإذا ظل كذلك هل يمكننا أن نطلق عليه تعبير إبداعيا كنائيا، بوصف الكنائية فنا يتخَلَّق من خلال لغة فنية يخلقها المبدع خلقاً مغايراً عن إيجاد نفس اللغة فى فضاءات أخرى، وتركيبها

١- السكاكي، مفتاح العلوم ،بيروت دار الكتب العلمية، ص: ١٧٠، نقلاً عن د. محمد عبد المطلب " البلاغة العربية" قراءة أخرى"، ص: ١٨٦

٢- فى كتابه" البلاغة العربية قراءة جديدة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ١٩٩٧م، ص: ١٨٧

٣- نفسه، ص: ١٨٧

تركيباً عجيباً ، يُهَيُّؤُها لإفراز وإنتاج دلالات أخرى، يسعى المتلقي نحوها ويكد ذهنه في استخراجها، ويكون السياق ممثلاً دور (الحضانة) التي تضع من خلالها التعابير الكنائية عن بناتها (دلالتها المختبئة والمنتظرة) ويتجه (أستاذنا) بوضوح أكثر نحو الإشكالية، نعني إشكالية موقع الكناية بالنسبة للحقيقة والمجاز يقول"ويلاحظ أن عملية التجاوز للمستوى السطحي مرتبطة أساساً بعملية(القصد) مع الاحتفاظ للمعنى الموازي بحق الحضور التقديري لأن تغيبه تماماً، يعني الانتقال من بنيه الكناية إلى بنية المجاز عموماً، فالكناية يتجاذبها حقيقة ومجاز على النحو التالي:

حقيقة ← كناية → مجاز

وهذا التجاذب لا يقتضي غلبة طرف على الآخر، حتى تحافظ البنية على حقيقتها المعرفية المفارقة للحقيقة والمجاز حيث تعتمد المفارقة على القرائن اللازمة، إذ إن ظهور الناتج الكنائي تمتنع معه ظهور القرائن الحاجبة للمعنى الحقيقي، وهو ما

يتيح ناتجين على صعيد واحد وهو مالا يمكن تحققه فى بنية المجاز، إذ لا يصحبها قرنية مانعة من إدراك المعنى الحقيقي" [1] وينتبه أستاذنا لمسألة التصادم بين المعنيين قائلاً " ولا يمكن أن يكون تصور بنية الكناية على هذا النحو الثنائي مؤديا إلى التناقض أو التصادم بين الصياغة وناتجها، لأن اللفظ قد أنتج الحقيقة والمجاز معا، وذلك أن الازدواج الإنتاجي ليس راجعاً إلى الإفادة، فالاستعمال مرتبط بالحقيقة الوضعية، أما الإفادة فهي التى ترتبط باللزوم الطارئ، فعندما تقول:(فلان طويل الثوب) يكون طول الثوب مستلزماً لطول القامة، فقد استعمل اللفظ فى لازم معناه، دون أن يعوق ذلك إرادة طول الثوب على الحقيقة، وهو ما يعنى حضور المعنى الأول والثاني إلى رحاب الصياغة"[2]

١- نفسه، ص: ١٨٧
٢- نفسه، ص : ١٨٨

obeikandi.com

وأستاذنا يتكئ على القرينة التى تمنع إرادة المعنى (الحرفي)، كما هو الشأن فى جواز المعنى الحقيقي للتعبير والعبارة التى أتى بها أستاذنا " فلان طويل الثوب " عبارة ليست فى سياق إبداعي، لذا لا يمنع من إرادة المعنى الحقيقي بطول الثوب عن طبيعته المُقَاسَةِ على الشخص، أما أن تعزز هذه العبارة لازماً، فلابد من سياق يدفع هذه الصياغة نحو توليد منتج جديد، تظل الدلالة العامة قلقة بدونه .

إن قرينة التعبير الكنائي كما سنبين بعد قليل - قرينة متنوعة، قرينة ليست من جنس القرينة فى التعابير المجازية الأخرى ، كالمجاز المرسل أو الاستعارة أو التشبيه ، قرينة عقلية كما يقول أستاذنا الدكتور محمد من أن المعنى الكنائى يأتي عن طريق تدخل العقل فى استخلاص اللازم من الصياغة [1].

١- نفسه، ص: ١٨٨

إن التعبير الكنائى يمثل فى شقه الأول، فى رؤية أستاذنا المتكأ الذى يسند عليه فى استخلاص اللازم دون الاعتداد بدلالته الظاهرية، وهذا يتضح فى تعليقه على العبارة المأخونة من قول أم ذرعة المشهور (زوجي رفيع العماد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد)، يقول " (محمد كريم) تساوى دلاليا (محمد كثير الرماد) فى إنتاج معنى الكرم، وإنما تأتى الإضافة الحقيقية فى البنية الثانية من أنها تثبت وتقرر المعنى الكنائى عن طريق تدخل العقل فى استخلاص اللازم من الصياغة" [1]ولم ير أستاذنا أن " كثير الرماد "ما هو إلا أشبه بمقدمة النتيجة الرياضية، كما ذكر في تعليقه على العلاقة بين اللَّمْس والجماع [2] ومع ذلك يؤكد أستاذنا جواز إرادة الأصل فى التعبير الكنائى حين يفرق بين الحقيقة والمجاز والكناية ، فيقول " والحقيقة : تقوم على استخدام اللفظ فى معناه الأصلي ، والمجاز: يقوم على استخدام

١- نفسه، ص: ١٨٨
٢- نفسه، ص : ١٩٨

اللفظ فى لازم معناه، والكناية تقوم على استخدام اللفظ فى اللازم مع جواز الأصل" [1]، وإذا كان المعنى الحرفي جائزا، فهل يمكننا أن نجيز ما جاء فى قول صلاح عبد الصبور فى " لحن " الذى أتى به أستاذنا فى إطار حديثه عن (التلويح) الذى يقوم على كثرة الوسائط للوصول إلى المعنى المكنى عنه .

،،،،يقول صلاح عبد الصبور :

جارتي لست أميراً
لا ولستِ المُضْحِكَ المِمْراحَ فى قَصْرِ الأمِيرِ
سَأُرِيكَ العَجَبَ المُعْجِبَ فِي شَمسِ النَّهارِ
إنَّنِي خاوٍ ومملوءٌ بِقَشٍ وغُبَارِ
أنا لا أملكُ ما يَملأُ كفِّى طَعاماً
وبِخَدِيكَ مِنَ النِّعمةِ تُفَّاحٌ وسُكَّر [2]

١- نفسه، ص : ١٩٤

٢- صلاح عبد الصبور ، الناس فى بلادي ،القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٦ م، ط٧ ص:٤٨ نقلا عن د. محمد عبد المطلب، البلاغة العربية،(مرجع سابق) ص:١٩٦

هـل يجـوز أن نقـول بجـواز هـذا التعـبير(إنـني خـاو ومملـوء بقـش وتـراب)، واعتمـاده بحجـة عـدم وجـود قرنيـة، ولمـاذا لا يكـون السـياق الشـعرى ومناخـه الـذى تتحـول فيـه اللغـة إلى لغـة أخـرى مغطـاة، لغـة لابـد أن تتقشر حتـى نصـل إلى لبِّهـا، لغـة ملتحفـة بأرديـة لابـد أن تـزال، لمـاذا لا يُعَـدُّ ذلـك كلـه هـو القرنيـة المانعـة مـن إرادة جواز الدال الأول ؟!

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

ثالثا: أدبية التعبير الكنائى ومجازيته

لقد بان لنا فى الصفحات السابقة أن أدبية التعبير الكنائي لدى كثير من البلاغيين أدبية مضطربة يشوبها الخروج عن خصائص هذه الأدبية، ويخرجها عن حيويتها وخصوبتها إلى عقمها ومواتها، لذا كانت تحليلاتهم لهذا النوع من التعبير مشوبة بضياع الجانب الجمالي فيها، وكان اضطرابهم حيال مفهوم (الكناية) بسبب انشغالهم بالبحث عن موقع الكناية من الحقيقة والمجاز، مما أضفت على تحليلهم نزعة منطقية أبعدت البلاغة العربية ردحاً من الزمن، عما تمتاز به من حسٍ جماليٍ أبعدها عن الأجواء الفكرية التى نشأت فيها[1]

إن دراسة التعبير الكنائى بوصفه تعبيراً جمالياً، تعبيراً خلاقاً فى بنية نص أدبي خلاق، يستحضر التحليل والتأويل " إذ هما –

١- د. بشير كحيل، الكناية فى البلاغة العربية (مرجع سابق) ص: ٥،٦

بمفهومهما المعجمي أو الفني – قادرتان على مواجهة موجات الشك التي تتفجر من مراكز إنتاج المعنى، وقادرتان على احتمال تأجيل النص لمنتجاته الحقيقية ... وهو ما يجعل للتأجيلية السيادة المطلقة على الخطاب الأدبي على وجه العموم واعتقد أن هذه التأجيلية هي سر خلود النصوص العظيمة التي مازالت تشغلنا حتى يومنا هذا ..." [١]

وما دام الأمر كذلك، وما دام الشاعر" يعتمد بالدرجة الأولى على تخليص اللغة مما تعودت عليه "[٢] فيجب ألا ننس أن التعبير الكنائي لبنة أدبية وسط بناء أدبي، وهذا يدعونا بالضرورة إلى الوقوف على سمات الشاعرية التي تولد منها التعبير الكنائي، ويرصد سماتها أستاذنا الدكتور. محمد عبد المطلب، ومنها ما يأتي [٣]

١- د. محمد عبد المطلب، هكذا تكلم النص، (استنطاق الخطاب الشعرى لرفعت سلام)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص: ١٢

٢- نفسه، ص: ١٥

٣- نفسه، ص: ٣٠ وما بعدها

الأولى :

أن الشعرية تقوم على القصد الاختياري، بمعنى أن المبدع يتعامل مع لغته تعاملا انتقائيا، سواء أكان فى دائرة المفردات أم فى دائرة المركبات.

الثاني :

أن الشعرية تقوم على اختراق المألوف إلى غير المألوف المألوف الصياغي أوالمألوف الدلالي، وهو ما اصطلح عليه – أسلوبيا – بالانحراف.

الثالثة :

أن أخصَّ خصائص الشعرية هي كثافة لغتها، كثافة تصد النظر أن يخترقها، وصولا إلي الناتج الدلالي سريعا، علي العكس من النثرية، التي تأخذ لغتها طبيعة شفافة تسمح بهذا الاختراق دون بذل جهد فكرى فى البنية لفك فعاليتها والكشف عن نظامها .

أن الشعرية تتحقق من خلال تشكيل فضاء نصي يحيط بالخطاب، ويحمل كثيراً من بناه أو عناصره، ولحمة هذا الفضاء مجموعة الدوال والمدلولات التى لا تجد لها مكاناً فى الخطاب المنطوق، فيتم دفعها للفضاء بعمليات صياغة، كالحذف والإضمار أو عن طريق الدال المزدوجة الدلالة، أو عن طريق" التجوز" أو غير ذلك من الوظائف النحوية والبلاغية التى تحيل على الفضاء بشكل لازم .

بعد هذا العرض لسمات الشعرية، والتعبير الكنائي بوصفه فناً أدبياً، سواء أكان شعراً أم نثراً، نرى فيه هو الآخر أنه يتسم بنفس هذه السمات من ناحية القصدية والانتقاء، فهذه الصياغة صياغة فنية يقوم صاحبها تبع السياق الدلالي بانتقاء المفردة أو المركبات لغاية بعيدة عن المباشرة، لما يتسم به هذا التعبير من كثافة تدعو متلقيه نحو التأني وصولاً إلى الناتج الدلالي

وهو تعبير يقوم في أوضح سماته على اختراق المألوف إلى غير المألوف، وهو تعبير يتواجد في فضاء نصي يحيط بخطابه مجموعة من الدوال والمدلولات، مما يدفعه أن ينتج عن طريق" التجوز" دالاً هو غاية المبدع، ومرسى المتلقي، وما دام التعبير الكنائي بهذه الفنية، فلا يُشْكِل علينا أن ننتهي إلى حل إشكالية هذه القرينة التي أقلقت كثيرا من البلاغيين، وأدَّت إلى هذا النقاش الذي أبعد هذا الفن عن غايته الجمالية وثرائه الدلالي.

إن القرينة التي يُتَّكَأُ عليها في عدم الوقوف على المعنى الحقيقي في التركيب الكنائي تتمثل في رأينا على النحو التالي:

أولاً :

هذه الأدبية التي يتسم بها التعبير الكنائي، أو هذه الشعرية التي تحوم في فضائها الصورةُ الكنائية، هي قرينة كبرى لا يجب تغافلها، فالأديب شاعر كان أو ناثر، لا يلجأ إلى مثل هذه التعابير في مناخ الشعرية إلا وهو ينقلها من فضائها الساكن

إلى فضائها الحركي، الذى تحوم فيه عدة دلالات جديدة، ويكون السياق الشعرى بمثابة القلب النابض الذى يغذى هذه التعابير و يبعدها عن ركودها ومواتها.

ثانياً :

تتمثل قرينة هذا الفن الكنائى – إذن – فى كونها معنوية يدخل السياق بدور كبير في تمثلها وتصورها، إلى ذلك يشير صاحب الإشارات والتنبيهات، الجرجاني محمد بن على بن محمد كما يقول بشير كحيل " إذا اعتبر أن المجاز ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم نظراً إلى القرنية المانعة من إرادة المعنى الحقيقي فيه فهو صحيح، غير أن الكناية أيضاً كذلك، لأنه لابد فيها أيضاً من قرنية، وإن لم تكن لفظية أي معنوية، ففي قولنا (فلان كثير الرماد)، لا يكون المراد هو كثرة الرماد حقيقية، ولو أريد

ذلك لكان مستحيلاً أن يمتدح به الموصوف، ولعلها هي القرينة المعنوية المانعة من إرادته..." [1]

ونفس هذا الرأي يقول به د. شفيع السيد حين يعلق على بعض الصور الكنائية قائلاً " ثم إن هناك من الكنايات ما لا يمكن إرادة المعنى الحقيقي له، كتلك التى يسميها المتأخرون : كناية عن نسبة كقولهم (**الذكاءُ بيْن عَيْنَيهِ**) و(**الحَزْمُ في إهَابِه**)، **فلا يمكن إرادة المعاني الحقيقة لأساليب الكناية السابقة لاستحالة ذلك عقلاً وواقعاً، وبهذا تعد الكناية** – كما ذكرنا – من قبل نوعاً من المجاز"[2] ، إذن فالتعبير الكنائى هو ذاته قرينة مانعة من تصور المعنى الحقيقي فيه، لأن هذا التعبير يترك دلالته الظاهرة، ويتقشر جلده ليظهر المعنى المختبئ .

١- بشير كحيل، الكناية فى البلاغة العربية، ص: ٢١٧

٢- التعبير البياني، (مرجع سابق)، ص: ١٢١، ١٢٢

كان التخريج الديني في التعابير القرآنية الكنائية له دور كبير في عدم جواز المعني الحقيقي، كأن المعنى نفسه هو في ذاته قرينة مانعة، وهذا ما تداولته كتب البلاغة قديمها وحديثها يقول د. عبد الفتاح لاشين " وليس كل كناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي فقد يمتنع المعنى الحقيقي لخصوص المادة، أو لأنه غير متحقق في الواقع كقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فالاستواء كناية عن الاستيلاء والسيطرة، فالمعنى الحقيقي هنا يمتنع، إذ يستحيل أن ينسب إلى الله تعالى الاستواء بمعناه الحقيقي، وهو الجلوس ومثله قوله تعالى :

(وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ...) [1]

١- البيان في ضوء أساليب القرآن، (مرجع سابق)، ص: ٢٧٠

فإذا كان التعبير الكنائي فى مثل هذه الآيات يأبى المعنى الحقيقي، فهو فى غيرها ممتنع أيضاً، يقول الشاطبي " ألا ترى إلى قولهم:فلان أسد، أو حمار، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمفرده لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله (صلى الله عليه وسلم) [1]، وهل يمكننا أن نجيز (الدال الأول: الحرفيّ) فى الآيات التالية :

- " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ..." [2]
- " وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ "[3]

١- الموافقات، (مرجع سابق)، ص: ١٥٣
٢- سورة المنافقون: من الآية ٥.
٣- سورة الإسراء : الآيات ٤٩، ٥١

- "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾"[1]

فـ (إمالـة الـرأس) فـى الآيـتين الأولـتين لا يمكـن تصـورها على الحقيقـة أبـداً، والسـياق يرشـح المعنـى الآخـر ويقـوى اسـتدعاؤه فـ(حركـة الـرأس) فـى حـد ذاتهـا ليسـت هـي غايـة السـياق، إلا بـدلالتها ومـا تشـير إليـه مـن اسـتهجان وسـخرية وامتهـان واسـتجهال، وتأمَّـلْ المجـاور مـع (لـووا رؤوسـهم)، تجـد (ورأيـتهم يصـدون وهـم مسـتكبرون) فالصـد والاسـتكبار قرينـة مانعـة تمامـاً مـن تصـور(لـووا رؤوسـهم)بـأي حـال مـن الأحـوال على حقيقتهـا، وكـذلك الآيـة الثانيـة (فسينغضـون رؤوسـهم) يجاورهـا التعجـب المشـوب بالإنكـار فـى قولـه تعـالى(وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا...)، والاسـتفهام فـى قولـه (متى هو) بدلالتـه على الاسـتخفاف والإنكـار، والآيـة الأخـيرة لا يتصـور معهـا (غـل اليـد) أو(بسـطها) علـى الحقيقـة، بـل المـراد بدلالـة السـياق والمجـاور" البخـل والتبـذير"

١- سورة الإسراء : الآيـة ٢٩

وتـأمَّل المجـاور (...فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) فمـا هـذا اللـوم وهـذه الحسـرة، وهـل يمكنهـا أن تتجـاوز مـع حركـة اليـد الطبيعيـة حـين تكـون مغلولـة أو حـين تكـون مبسـوطة، ويزيـد د. محمـد أبـو موسـى قـائلاً " ولأن المعنـى الحقيقـي، وإن كـان ممكنـاً إلا أن هنـا قرينـة مانعـة مـن إرادتـه، وهـى كـون المخاطـب غـير مغلـول اليـد ولا مبسـوطها بـالمعنى الحقيقـي، فـلا محـل للنهـى إلا أن يكـون الكـلام على المجاز[1]

رابعاً :

قـد تكـون القرينـة المانعـة مـن تصـور المعنـى الحقيقـي الظرف الاجتمـاعي والزمـاني الذى يوجد فيـه التعبير الكنـائى، وكمـا هـو معلـوم أن كـثيراً مـن هـذه التعـابير أفرزهـا المنـاخ الاجتمـاعي والعـرف" إنهـا ربيبـة المجتمـع، ونصيب المجتمـع فيهـا لا يقتصـر على تهيئـة الباعـث للفـرد علـى اسـتحداثها، وإنمـا هـو يتلقاهـا بـالقبول

١- د. محمد ابو موسى،البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري، (مرجع سابق) ص: ٥٥٦

ويمنحها الرضى، ويتولى إذاعتها ونشرها، وهو الذى يعرض عنها ويستبدل بها غيرها [1] ولا شك أن كثيراً منها فى العصور السابقة كان الظرف الاجتماعي هو قرينة هذه الكنايات، فمن ذلك على سبيل المثال قول ابن أبى الإصبع " مِنْ مِلَحِ الكناية قول بعض العرب :

أَلاَ يا نَخْلَةً مِن ذَاتِ عِرقٍ
عَلَيْكِ ورحْمَةُ الله السَّلامُ
سألتُ النَّاسَ عنْكِ فَخبَّرُونِى
هنَا مِن ذَاك يُكرَهُهُ الكِرامُ

"فإن الشاعر كنَّى بـ(النخلة) عن المرأة و(الهناء) عن الرفث فأما (الهناء) فمن عادة العرب الكناية بها عن مثل ذلك، وأما الكناية بـ(النخلة) عن المرأة فمن طريف الكناية"[2]

١- د. محمد جابر فياض ، الكناية، (مرجع سابق)، ص:٨١

٢- تحرير التعبير، ص: ١٤٥ ، ١٤٦، نقلاً عن بشير كحيل، الكناية فى البلاغة العربية، ص: ٥٩٨

ومن ذلك، مما يكون فيه المناخ الاجتماعي قرينة مانعة ما هو شائع فى تناول البلاغيين فى قول الشاعر :

وما يَكُ فِيَّ مِن عيبٍ فَإِنِّي

جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ

فالتعبير الكنائى:"جبانُ الكلبِ" و"مهْزولُ الفصيل" مما أفرزتهما البادية العربية، ومن القرائن التى تتصل بثقافة العصر: قول البحتري :

صَدَمْتَ بِهِمْ صُهْبَ العَثَانِينَ دُونَهُم

ضِرَاب كإِيقَادِ اللَّظَى المُتَسَعِّرِ

فتركيب (صُهْب العثانين) له" دلالة مباشرة عن لون شَعْر اللِّحْية " لكن الإشارة الكنائية تتجه إلى المعنى الآخر، وهو أنهم من (الرُّوم) أعداء العرب والمسلمين، وهذا يُدْرك من سياق القصيدة وثقافة العصر" [1]، ومن الكناية التى كانت فيها القرينة مستمدة من ثقافة العصر الحديث، ما يقال:(ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود)

١- د. فايز الداية، جماليات الأسلوب، (مرجع سابق)، ص: ١٤٦

كناية عن الشؤم واليأس أو استخدام (غُصْن الزيتون) كناية عن السلام أو قولنا: (شخص من أَرْباب الانْفِتاح) كناية عن الثَّراء الفاحش .

خامساً :

يتسم التعبير الكنائى فى عملية التداعي بما تتسم به (الأدبية) فى إحدى سماتها وهو" عملية التحول الدلالي الذى يعد بحق إحدى الطاقات المحركة للأدبية.... ومن الدليل على ارتباط هذه الطاقة بالنص رأساً، أنها لا تكون فاعلة إلا داخل كلام مُؤَلَّفٍ تام البناء، فهي لا تكسب قمتها من اللفظ العريان، وإنما من السياق أساساً " [1]، وعلى هذا فإن التعبير ينْبني على مفهومين .

١- توفيق الزيدي، مفهوم الأدبية فى التراث النقدي، سرس للنشر، تونس، ١٩٨٥م، ص: ١١٧

- المفهوم الأول :

مفهوم ساذج بديهي لا يكدُّ المتلقي ذهنه فى تعَرُّفِه وفهمه إنه تعبير لا يكاد ينتهي من قراءته حتى ينصرف عنه، لا يشغل عقله، مَشْغولاً مُثَارَاً نحو الدال الثاني(المراد)، لذا فهذا الدال يمثل" المثير" لعقلية هذا المتلقي .

- المفهوم الثاني :

هو هدف الباث، وهذا الهدف هو فنية التعبير" إذ يفرغُ الباث إلى تحليل الصورة إلى عنصرين بغية الإخفاء، فيستفز هذا الإخفاء الباث، فيؤلف بين العنصرين ليصل إلى المعنى الأصلي المقصود " [1]وعلى ذلك" فلابد للأديب أن يُخْرِج كلامه مخرجاً فنياً وإلا لم يَتَعَدَّ الكلام الغفل" [2]

١- نفسه، ص: ١٢٣

٢- نفسه، ص : ١١٧

مـرة أخـرى لا يتعـدى المفهـوم الأول أن يكـون أشـبه بالمقدمـة التـى يتعـداها الرياضـي ليصـل إلى النتيجـة، أو هـو بمثابـة " الجسـر ما بين قوة إدراك الكناية وبين العقل الذى يترجم عنها " [1].

إن المفهـوم الأول – مـرة أخـرى – يمثـل " دور الملقِّـح للـذهن، فينـتج عـن هـذا اللقـاح صـور ذهنيـة لـبعض مـا خبرنـاه في التجربـة وهـذه الصـورة تتفاعـل بـدورها مـع أعصـاب دماغنـا، فيتولـد عـن تفاعلـها إعـادة بنـاء للتجربـة التـى ارتضـت أن تكـون تلـك الصـورة الذهنية دليلاً عليها، مثلما كنَّتْ كل كناية عما كنَّت عنه " [2].

وعلـى مـا سـبق فـإن المفهـوم الأول إذا وقفنـا عليـه، أو قلنـا باعتمـاده أو جـواز معنـاه الحقيقـي، فإنـه يُعـد إفراغـاً لـه مـن دلالتـه، ولا يكـون لـه قيمـة فـى سـياق الكـلام [3] ويعـدُّ الوقـوف علـى

١- نعـيم علويـة، نحـو الصـوت ونحـو المعنـى، المركـز الثقـافي العربي،الـدار البيضاء،المغرب،ط١٩٩٢،١م، ص : ١١٠

٢- نفسه، نفس الصفحة .

٣- د. محمد محمد أبو موسى،التصوير البياني، (مرجع سابق)، ص:٤٦٠

أحد المعنيين – في التعبير الكنائي – هو سقوط المعنى الآخر من الفكر " [1] وهذا مدمر للصورة الكنائية ومُخْرج لها من دائرة الفن.

إذن مجازية الكناية أمر أكَّدتْه خاصية اللغة الشعرية أكدته طبيعة السياق ومناخه القوى، أكَّدهُ المناخ الاجتماعي والظرف الثقافي، إن المعنى المجازى (الدال الثاني: المراد) يتماس مع المعنى الحقيقي (الدال الأول : الحرفي) مُتَّكأً عليه ثم ينفلت منه، متحوصلا حول المعنى الجديد، الذى تولَّدَ عن تفاعل أعصاب الدماغ، حين حدث هذا التماس السابق، ويوضحه الرسمة التالية:

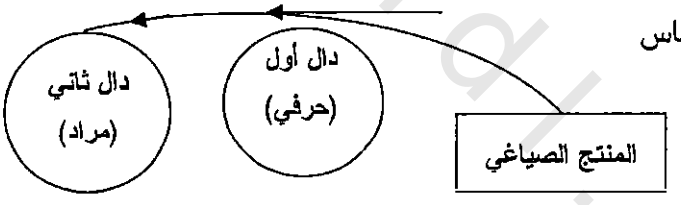

هكذا يصبح التعبير الكنائى تعبيراً أدبيا يتصف بالشعرية ولم يكن البعد المعجمي إلا جسر يعْبُرُ به نحو البعد الدلالي الذى يتسم بانفتاحه متسعاً للتأويل والتحليل.

١- نعيم علوية، نحو الصوت ونحو المعنى، (مرجع سابق) ص: ١٠١